امرأة بدون كفن(Une Femme Sans Sépulture) لآسيا جبار:

صراع وانسجام بين اللغة الفرنسية والعربية في الأدب الجزائري

بقلم: ماريا جوزيفينا براشي

ترجمة : د/ مديحة عتيق

جامعة سوق أهراس/الجزائر

مجلة العربي الكويتية، العدد160، ماي2015

الملخص

الأدب ذو التعبير الفرنسي في المغرب العربي، والمتأثر بالثقافة العربية والبربرية مكتوب بالفرنسية، لغة المستعمِر القديم. يشكّل إذن فضاء للتمزّق، والتناقض. ولهذا، تؤدي اللغة دورا أساسيا لدى الكتّاب الجزائريين الذين عليهم أن يشجّبوا الظلم واللاتسامح بلغة المستعمِر. وانطلاقا من تحليل رواية **(امرأة بدون كفن)** سنحاول توضيح العلاقة الإشكالية والمتناقضة التي تعيشها الكاتبة آسيا جبار مع الفرنسية والعربية. تظهر هاتان اللغتان لدى الكاتبة الجزائرية في شكلين: تمثّل اللغة الفرنسية في آن واحد لغة العدوّ، والانفتاح على العالم الحديث. وتمثّل اللغة العربية بدورها الجذور العائلية، وفي الوقت نفسه قمعا يحول دون تقدّم الشعب الجزائري. ومع ذلك، سوف نلاحظ بأنّ إظهار اللغتين معا سيسمح للكاتبة بالوصول إلى تركيبة توفيقية حيث تكون الفرنسية أداة للتحرّر تكشف النقاب عن الثقافة العربية كما تدّعي النساء الجزائريات.

الكلمات المفتاحية: الفرانكفونية، الأدب، الهويّة الجزائرية.

مقدّمة:

(امرأة بدون كفن) الصادرة عام 2002، منشورات ألبن ميشيل (Albin Michel) هي رواية ذات أصوات متعدّدة حيث نسمع حديث الكثير من النساء الجزائريات اللائي ساهمن في استقلال الجزائر المتحقّق عام1962 بعد حرب طوية و مريرة.

ولدت زليخة أوداي(Zoulaikha Oudai) بطلة هذه الرواية المتعددة الأصوات في شرشال عام1916، هي بطلة منسيّة في حرب الاستقلال، عذبها الجنود الفرنسيون وقتلوها عام1958، ولكنّ جسدها لم يعثر عليه أبدا، لكنّ صوتها يظلّ حيّا، وتترك لنا

المونولوجات الأربعة التي تختلقها المخيّلة الاستثنائية للكاتبة شهادة عن قوّتها العقلية وكذلك عن وفائها لمبادئ التسامح والحرية التي قاتلت من أجلها إلى الرمق الأخير.

والأصوات الأخرى التي تُسمَع في الرواية تنتمي للنساء المقرّبات جدّا من زليخة، وهنّ : ابنتاها هنيّة، ومينة، وصديقتها الحميمة السيدة ليون، و زهرة أوداي، شقيقة زوجها الأخير. وعبر أنغام هذه الأصوات النسوية تنتعش ذاكرة زليخة وتنتشر في هواء شرشال حتى لا ينساها أحد.

يؤدّي صوت الكاتبة، والكاتبة نفسها، دورا مهمّا. فبحجّة إجراء بحث من أجل فيلم عن زليخة تعود آسيا جبّار إلى مسقط رأسها، وتقدّم نفسها متخفّية تحت تسميات على غرار:" الزائرة"، و "المدعوّة"، "الأجنبية إلى حدّ ما"، وهكذا، تصبح تارة محاورة تستمع في صمن لقصص النساء، وتصبح قاصّة أخرى تارة ثانية تمسك بزمام الحديث كي تمزج الذكريات مع تلك الشهادات عن معاناة زليخة.

وبكتابتها هذا الرواية في شكل سيرة ذاتية في جزء منها، تقترح آسيا جبار من جهة المطالبة بالاعتراف بالدور الأساسي للنساء الجزائريات في استقلال بلادهنّ، وتظهر من جهة أخرى أنّ كلا الفرنسية والعربية أداتان أساسيتان في بناء الهويّة الجزائرية وتدعيمها.

وضعية الكتّاب الجزائريين:

تطوّر الأدب ذو التعبير الفرنسي في المغرب العربي على نحو خاصّ بعد الحرب العالمية الثانية، ضمن المرحلة ما بعد الكولونيالية التي بدأت في المغرب وتونس عام1956 والجزائر عام1962 راسيا بين ثقافتين مختلفتين اختلافا جذريا، وبين تاريخين، ولغتين. كُتِب هذا الأدب المتشرّب بالتراث العربي والبربري باللغة الفرنسية، لغة المحتلّ، فكانت بالضرورة فضاء التمزّق والتناقض، كان على الكتّاب الجزائريين أن يشجّبوا الظلم والتمييز واللاتسامح في لغة المحتلّ، الأداة الوحيدة للتحرّر. وهكذا أصبح النضال من أجل الهويّة قضيّة أساسيّة لا يمكن عزلها عن الآداب الجزائرية. تحدّد المشاكل المرتبطة بالفرانكفونية في الجزائر الأدب الجزائري وتشكّله، والذي يظلّ قابعا في برزخ ما بين اللغتين: الفرنسية العربية.

لا تشذّ الكاتبة آسيا جبّار عن القاعدة، فقد ولدت في الجزائر، ثمّ نفيت إلى فرنسا، وهي تعيش علاقة إشكالية ومتناقضة مع لغتها الإبداعية، وبهذا الصدد تقول آسيا جبار:

"إذا كانت المرحلة الأولى هي استحضار الماضي عبر الكتابة بالفرنسية، فالمرحلة الثانية هي الإصغاء إلى النساء اللائي يستحضرن الماضي شفويا عبر اللغة الأمّ. وبعد ذلك لابدّ من إعادة هذا الماضي المستحضَر عبر لغة الأمّ إلى لغة الأب. فالفرنسية بالنسبة لي أيضا لغة الأب. فلغة محتلّ الأمس تصبح بالنسبة لي لغة الأب حيث أنّ أبي كان معلّما في مدرسة فرنسية. ولكن في هذه اللغة يمكث الموث حسب شهادات التحقيق التي جمعتها. ولكنّها أيضا الحركة، وتحرّر جسد المرأة، فبالنسبة لي، فتاة تذهب إلى المدرسة الفرنسية يعني أنه باستطاعتي أفلت من الحريم. ومع ذلك حين يكون الجسد ساكنا، تكون لغة الأمّ نفسها ذاكرة، ولحن الماضي" (مورتيمر،1988: 201)

وهكذا كانت اللغة الفرنسية في الجزائر موضوع تناقض كبير يتجلى في مظاهر اجتماعية، وثقافية، وسياسية، وهويّاتيّة، فمنذ 1850 حين استعمرت فرنسا الجزائر تجاهلت هويّتها، واحتلّ ت الفرنسية مكان العربية في التعليم والاستعمال الرّسمي. وأصبحت لغة الامتياز الاجتماعي والانفتاح على الحداثة، و التربية، والثقافة العالمية من ناحية، واعتُبِرت من ناحية أخرى لغة العدوّ الذي يرغب في تطويع المستضعفين لسلطته. ونجد في رواية **(امرأة بدون كفن)** هذين المنظورين، وهف آسيا جبّار بالضبط هو إظهارهما معا من أجل بلوغ تركيبة تصالحية.

الفرنسية والعربية في (امرأة بلا كفن): لغتان.. وهويّة واحدة:

انطلاقا من شظايا عديدة مأخوذة من رواية **(امرأة بلا كفن)** سنقوم الآن بتحليل المظاهر العدائية التي تظهر ممثلّة في الفرنسية والعربية. فاذا كانت الفرنسية تمثّل في آن واحد لغة العدوّ ولغة الانفتاح على العالم، فللعربية أيضا وجهان، أحدهما يمثّل الجذور والثقافة وهويّة الأصول، والآخر يمثّل اضطهاد النساء، والاستبداد، والمحرّمات التي تعيق تطوّر الشعب.

وفيما يتعلّق بالفرنسية، فقد تجلّى جانبها الإيجابي على نحو خاص من خلال زليخة، بطلة الرواية، فقد مكّنها نجاحها في التعليم وإتقانها الفرنسية من أن تشعر بالتحرّر من النير المفروض على النساء. فهي ترى في اللغة الفرنسية سلاحا تقاتل به كلّ ما يبدو ظلما. صوّرت هذه الفكرة في الرواية من خلال "طرفة" جعلتها زليخة وقاحة تجيب بها على تحرّشات أوروبية بالفرنسية كافة حجابها. وبخصوص هذه الحادثة تعلّق سيدة قيصرية:

" لا أخالني يكون لي هذه الشجاعة، أفهم فقط شيئا من الفرنسية، لن أستطيع الإجابة بغضب على السيدة مايو، على أيّ حال، حتّى لو كنت اتكلّ مثل زليخة، سأكون

خائفة من سيّدي خاصّة عند العودة إلى المنزل، سأكون معروفة في الشارع، أنا ، امرأة ! وأنزع حجابي.. يا لجرأة زليخة هذه !" (جبار،2002:24).

تؤكّد زليخة بخلعها الحجاب ريادتها في حركة التحرّر بالجزائر في عشرينيات القرن العشرين، وبشكل مماثل، تعتبر آسيا جبار الفرنسية أداة النضال والتحرّر. ففي رأيها تعدّ الكتابة بالفرنسية الوسيلة الملائمة لإثبات حرّيتها:

"(...) الكتابة بالنسبة إلى المرأة هي سرقة الكلمات، وانتزاعها من النظام الاجتماعي، من الاحتكار الذكوري، الكتابة هي اكتشاف عالم وحياة أخرى، وهي أيضا سلاح طعن ورفض السلطة العمياء للعادات" (غفايتي، 1999)

مقارنة بالصورة السلبية للفرنسية فأنّه تبدو أقل ورودا، ربما لأنّ الصورة بالنسبة إلى الكاتبة "جذّابة"، تلك التي تمثّل لغة الأب التحرّر، هي الأقوى والأكثر أهمّية.

تعتبر الفرنسية لغة "العدوّ" على سبيل المثال كما في الحادثة التي تورها الزهرة أوداي:

"على كلّ حال، هذا اليوم تحديدا، بينما كنت منشغلة بمصير زليخة،(...) ها قد دخل إلى الفناء ضابط فرنسي:

-هيّا تعالي، تعالي، يا امرأة.

-هكذا تحدّث إليّ، وأنا قد أجبته:

-لا، لا، إنّه محام (defendo)، (وضحكت)، محام..

-أعرف كلّ هذا، إيه نعم، إنّه الخوف، صغيراتي، ما يجعلكم تتعلّمن اللغة الفرنسية، وحتّى لغة الشيطان، إن اقتضى الأمر (جبار،2002: 85-86)

تظهر هذه الرؤية السلبية للفرنسية ثانية في مونولوغ زليخة الأخير حين تستحضر اللحظات الأخيرة من حياتها، فحين كان الجنود الفرنسيون يسومونها سوء العذاب، كانت العربية الأصيلة "نبع الحنان في هذه الفترة العابرة (ص122)، و اللغة الوحيدة التي تجد فيها السلوى.

ومثلما حدث مع الفرنسية، فكانت العلاقة بالعربية متناقضة وإشكالية، فمن ناحية، تظهر آسيا جبار رؤية "إيجابية "للغة العربية، فهي تمثّل الذاكرة، والأصول، ونواة الهويّة الجزائرية. احتفظت الكاتبة في روايتها بقدر كبير من الكلمات العربية التي تصمّم/ تصنع واقع وعناصر مرتبكة بشكل حميميّ بالثقافة والعادات الجزائرية.

فربّما تؤدّي ترجمتا إلى إلغاء خصوصياتها التي تسم الجزائر كأمة لها هويّتها الخالصة. هيمنت تلك الكلمات على خطابات النساء الشفويّة، فنقلت العواطف، والانفعالات، والعادات العائلية، وهذه بعض الكلمات المستقاة من رواية **(امرأة بلا كفن)**: "فلاح" (ص08)، "أمان" (ص26)، "دويرات" (ص29)، "حمّام" (ص36)، "مجاهدين" (ص44)، "مسكونات" (65)، "مدرسة" (76) "منفي" (ص77)، "مايدة" (ص83)، "بركة" (ص104).

تأسست هذه الرؤية الإيجابية للغة العربية ضمن حوار مشحون مع تمثيل آخر سلبي، تسائل آسيا جبّار وتنتقد في روايتها الاستبداد و القمع و القومية المتعصّبة للسلطة الجزائرية الجديدة التي تتولّى الحكومة بعد الاستقلال. فهذا المظهر المذموم للغة العربية من حيث كونها لغة الاستبداد قد شجبته على وجه خاص شخصية الزهرة أوداي التي تروي كيف اعترضت السلطة الفاسدة للهيئات الجزائرية الجديدة على طلبها مأوى لعيالها الصغار.

الخاتمة:

في رواية **(امرأة بلا كفن)**، تتقاطع أصوات عديدة وتتراكب كي تكشف النقاب عن واقع كبير ومعقّد، حيث تظهر الفرنسية والعربية وجهين: فالفرنسية هي في آن واحد لغة العدوّ والولوج إلى التعليم، وترتبط العربية بدورها بالجذور العائلية، مثلما ترتبط بالقمع الذي يعيق تطوّر الشعب الجزائري. ومع ذلك، تِتجاوز هذه الرؤية الاختزالية نهائيا بريشة آسيا جبار استطاعت أن تصهر قصص النساء الجزائريات الشفوية بكتابتها باللغة الفرنسية. وهكذا تغدو الفرنسية سلاحا للنضال ضدّ القمع، والنسيان، والحطّ من شأن المرأة في الجزائر.

وإذا كان من صحيحا أنّ الأدب الجزائري لا يزال يقبع في برزخ ما بين اللغتين، فهناك نزوع للكتابة نحو الحوار واستعادة جزائر متنوّعة حيث تستطيع اللغات والثقافات والأديان أن تتعايش في جوّ مضياف ومتسامح. وهذا هو بالضبط هدف آسيا جبار من كتابة روايتها: صياغة هويّة صلبة مشكّلة من ثنائية متوازنة.

البيليوغرافيا:

- Aggoun L; Rivoire JB,2004: La francophonie en Algérie in : Francalgérie, crimes et mensonges d’Etats, Histoire secrète de la guerre d’indépendance à « la troisième guerre » d’Algérie, Paris : La Découverte.

- Calle- Cruber, M,2001 : Introduction : Eléments pour un portrait d'écrivain dans l'entrelangue. In « Assia Djebar ou la résistance de l'écriture. Regards d' un écrivain d'Algérie. Paris, Maison neuve et Larose.
- Chikhi, B,1994. Littérature algérienne , isthme entre deux langues à l'épreuve de temps ; Guerre et littérature ; Ecritures féminines. In Littératures francophones du Monde Arabe. Anthologies. Paris : Nathan, ACCT.
- Djebar, A. 2002. La Femme Sans Sépulture. Paris. Albin Michel.
- Gafaiti, H.(1er semestre) « Assia DJebar ou l'autobiographie plurielle « Itinéraires et contacts de cultures, no 27, Paris, L'Harttman et université Paris13.
- Mortimer,M.1988. « Entretien avec Assia Djebar, écrivain algérien » . Research in African Literatures, vol.19.n02,p201,University Texas Press.

- المقال الأصلي بعنوان

La Femme Sans Sépulture, d'Assia Djebar : Conflits et Ententes entre le français et l'arabe dans les lettres algériens. Synergies d'argentine, n01,1012,pp33-38